مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسول الله ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد :

فهذا بحث فى جهود الاستعمار الغربى فى مساعدة الصهيونية وتمكينها من إقامة دولة الكيان الصهيونى فى قلب الأمة العربية بفلسطين .

والذى لا يعلمه كثير من العرب والمسلمين أن الغرب الاستعمارى فكر فى زرع هذا الكيان الخبيث فى قلب الأمة العربية ، قبل أن تفكر فيه الصهيونية ذاتها .

كانت فرنسا أول دولة إمبريالية، تفكر فى توطين اليهود بفلسطين، فقد أرسلت الرحالة الفرنسى الشهير « فولنى » ليجوب أرض فلسطين فى سنة ١٧٨٥م ، قبل أن يمر بها نابليون فى فبراير سنة ١٧٩٩م على رأس جيشه إلى عكا ، يوم أن أراد احتلال أرض الشام بعد احتلال أرض مصر .

إن (نابليون) كان أول من فكر فى إقامة هذا المشروع (الكلونيالى) عمليا على أرض العرب منذ أول يوم وطئت فيه القوات الفرنسية المحتلة أرض العالم العربى فى سنة ١٧٩٨م،فلقد دعا (نابليون) رؤساء من اليهود،وحدثهم فى إمكانية أن تمكنهم الجيوش الفرنسية بقيادته من إقامة وطن قومى بفلسطين، وكانت حكومة فرنسا قد اعتمدت خطة لإقامة « كومنولث يهودى بفلسطين » = دولة يهودية ، وبناء على هذه الخطة أصدر نابليون بيانًا مكتوبًا يحث فيه اليهود على الالتفاف حوله لإتمام المشروع وإعادة بناء مملكة القدس القديمة ، بمقابل : أن يقوم أثرياء اليهود فى أوربا بتقديم قروض مالية للحكومة الفرنسية التى كانت تمر آنذاك بضائقة مالية ، وأن يتعهد اليهود فى الوقت نفسه ، ببث الفتنة وبلبلة الأفكار ، ونشر الفوضى فى الأماكن التى تمر بها حملة نابليون العسكرية على مصر .

ولكن كان الهدف الأهم من وعد فرنسا اليهود بإقامة « كومنولث يهودى بفلسطين » أن نابليون مثله كمثل كل القواد الإمبراطوريين كان يعرف أهمية موقع فلسطين بين مصر والعراق وإيران والشام وتركيا والعالم العربى / الإسلامى ، فأراد أن يغرس اليهود بفلسطين ، لكى يسهلوا عليه احتلال منطقة (مصر والشام) بأسرها .

ولكن خطط الاستعمار الفرنسى فى مصر لم تكلل بالنجاح ، فاضطر إلى مغادرة مصر فى سنة ١٨٠١م ومنذ ذلك اليوم بدأ الاستعمار البريطانى فى التفكير فى احتلال مصر ، والتخطيط للمشروع نفسه الذى أخفقت فيه السياسة الفرنسية فى مصر .

والحقيقة فقد كانت نوايا كل الدول الاستعمارية الكبرى واحدة بدءًا من فرنسا، وانتهاء بالولايات المتحدة الأمريكية ، ويمكن إجمال هذه النوايا فى أن الاستعمار الغربى كان يهدف فى المقام الأول إلى فصل شطرى العالم الإسلامى/ العربى . شطره الأسيوى ، عن شطره الإفريقى من أجل تعطيل يقظة إسلامية موحدة ، فإذا نجح فى ذلك ـ بحسب تصوره استطاع أن يعطل سير الثقافة الإسلامية ، وبالتالى مدنيتها ، وأن يحقق أيضًا مصالحه المادية فى المنطقة العربية ، بل فى العالم ؛ ذلك لأن هذا الجزء من العالم الذى هو مركزه يمثل حلقة الاتصال بين شطرى العالم الشرقى / والغربى .

١ ـ ولما تمكن الاستعمار الإنجليزى من احتلال أرض مصر فى سنة ١٨٨٢م استطاع أن يمكن لليهود إقامة وطن قومى .

كانت خطط إنجلترا لإقامة وطن قومى يهودى ، قد بدأت عقب خروج (نابليون) من مصر فى سنة ١٨٠١م على المستويين الحكومى والشعبى ، ففى النصف الأول من القرن ١٩ (التاسع عشر) كانت حمى مساعدة اليهود متفشية كالمرض الوبائى فى كل الأوساط البريطانية السياسية والثقافية التى واكبت التوسع البريطانى الاستعمارى ، فنشر (توماس كلارك) أبرز أساتذة التاريخ فى جامعة أكسفورد كتابة « فلسطين لليهود » ونشر اللورد بيرون أشهر شعراء إنجلترا فى ذلك

الوقت مجموعة أشعاره « الأغانى العبرية » وفى مقدمتها قصيدة « الوعد التوراتى بأرض الميعاد » يقول فيها :

اطلع أيها الإله ودَع قدرتك تتجلى

وأرسل أشعتها مضيئة ودافئة إلى أبناء يعقوب

وأعد فلولهم التائهة إلى أرضهم الموعودة هناك

واهدهم إلى الطريق لكى يذهبوا إلى فلسطين فهى وطنهم

وكان اللورد شافتسبرى السابع (١٨٠١ ـ ١٨٨٥م) من أوائل الإنجليز الذين وضعوا الخطة النظرية فى المجال العملى ، وكان مهمومًا بفكرة إقامة كيان يهودى يفصل بين مصر والشام ، لدرجة أن الدوائر الاستعمارية الغربية تعده المؤسس الفعلى الحقيقى للفكر الصهيونى ، ولقد استجابت له حكومته فافتتحت قنصلية بريطانية فى القدس، وأسست صندوق اكتشاف فلسطين فى سنة ١٨٣٨م وفى سنة ١٨٥٠م تأسست جمعية التبشير ، المنبر الأساسى الأول للصهيونية المسيحية يتبعها ٣٢ فرعًا فى أنحاء الإمبراطورية البريطانية أهمها فرعا القدس ولندن، وترأس هذه الجمعية اللورد شافتسبرى نفسه .

ومما هو جدير بالانتباه إليه هو أن المشروع الصهيونى بدءًا من جهود شافتسبرى أخذ يسير فى اتجاهين :

الأول : عقدى توراتى ، خاصة لدى المسيحيين البروتستانت فى إنجلترا ، والولايات المتحدة .

الثانى : نفعى يقدم المصلحة المادية ـ لكل من الدول المعاونة للصهيونية ـ والصهاينة ـ على الأخلاق .

وهكذا سارت السياسة البريطانية ، منذ معاهدة لندن فى سنة ١٨٤٠م التى حددت حدود دولة محمد على بمصر بألا تتجاوز جيوشه حدود مصر ، حتى معاهدة التقسيم (سايكس ـ بيكو) التى اتفق فيها مندوبا إنجلترا وفرنسا فى إبريل ١٩١٦م وقد صادقت عليه حكومتاهما فى شهر مايو ١٩١٦م ثم صدور وعد بلفور فى السنة التالية سنة ١٩١٧م حتى تمكين اليهود من الاستيطان بفلسطين .

٣ ـ وكما ساعدت إنجلترا الصهيونية ، ساعدتها روسيا خاصة بعد الثورة البلشفية فى سنة ١٩١٧م .

كان الصهاينة الأوائل ـ الذين هاجروا إلى فلسطين من روسيا القيصرية ثم من الاتحاد السوفيتى ـ مؤسسى أول حكومة ، وأول جيش عسكرى فى دولة الكيان الصهيونى ـ وكانوا يعرفون جيدًا أهداف الاتحاد السوفيتى فى المنطقة العربية ، وهى أهداف مذهبية عقدية فى المقام الأول .

وكانت روسيا السوفيتية ـ من جانبها ـ تريد أن تثبت للعالم أنها قوة عظمى تستطيع أن تنافس الإمبريالية الغربية فى نفوذها فى العالم العربى ، حيث مناطق المياه الدافئة ، بجانب رغبتها فى نشر المذهب الشيوعى فى المنطقة العربية . والتقت المصالح وبدأ التعاون بين (الكومنترن = الأممية الشيوعية) وما أطلق عليه (الأممية الاشتراكية) بالكيان الصهيونى ، ونشاطه فى المنطقة العربية ، ومنذ العقد الثانى من القرن العشرين (فى سنة ١٩١٩م) بدأت المنظمة الصهيونية تشجع بعض اليهود لنشر الشيوعية فى العالم العربى لتحصل على مكاسب مزدوجة فى مقدمتها : المساعدات الروسية ، فضلاً عن بلبلة الأفكار ، وإثارة المذاهب المتضادة، وشغل العرب بمشاكل عقدية تبعدهم عن قضيتهم الأساسية بفلسطين ، وفوق كل ذلك كسب صداقة الاتحاد السوفيتى ، إذ إنه أكبر خزان يهودى بشرى يمكن نقله إلى أرض فلسطين .

وأخذت العلاقات بين الصهيونية ، والاتحاد السوفيتى تسير بخطا واسعة ، لدرجة أنها لاقت ارتياحًا وقبولاً من اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى فى أبريل سنة ١٩٣٥م التى أصدرت التقرير التالى ومما جاء فيه : إن لمناقشة الموقف فى فلسطين صلة بتأزم الأوضاع فى المنطقة العربية كلها ، وتنشيط الحركة التحررية اليهودية ضد الإمبريالية ، ومن ثم يجب أن تساعد الأممية الشيوعية اليهود الفلسطينيين معنويًا وماديًا ، باعتبارهم أحد فصائل الحركة التحررية العالمية .

« ولا تعترض الخارجية السوفيتية على تعاون (الأممية الشيوعية) فى إطار نشاطها ، مع (الأممية الاشتراكية) لتقديم الدعم للحركة اليهودية بفلسطين » .

واستمر التعاون بنشاط بين يهود شيوعيين سوفييت ، أعدوا لتعميق التعاون بين (الكومنترن) والأحزاب الشيوعية فى العالم العربى، وكان ستالين ومولوتوف الرجلان : الأول والثانى فى الاتحاد السوفيتى مرحبين بالصلات مع المنظمة الصهيونية ، وكانا يطالبان دائمًا بتعميق التعاون وتوسيعه بين الكومنترن والمنظمة الصهيونية .

وتدفق السلاح والبشر من الاتحاد السوفيتى إلى أرض فلسطين تبعًا لذلك .

٤ ـ ثم إن الشائع بين الناس أن هتلر = ألمانيا النازية ، الذى دأب على إبادة اليهود ، وهذه المعلومة الشائعة تخالف الحقيقة ، بل تضادها .

صحيح كان الرأى السائد فى ألمانيا ـ كما هو فى أغلب العواصم الأوربية ـ أن يتم التخلص من اليهود ، لأنهم يسيطرون على المراكز التجارية ، وأسواق رأس المال ، وكذلك يسيطرون على التوجهات الثقافية .

وفى ذات الوقت كانت المنظمة اليهودية تعمل على تهجير فئات معينة من اليهود النافعين الأقوياء القادرين على العمل والنتاج ، لأنهم النوع الأنفع من البشر فى تأسيس الدولة اليهودية .

ومن هنا قام تعاون بين المنظمة الصهيونية ، وبين النازية بمقتضاه :

١ ـ أن يقوم النازى بإبادة عشرات الآلاف من يهود غير صهيونيين ، تتم التضحية بهم على عين المنظمة اليهودية ، وبموافقتها .

٢ ـ أن يسمح النازى بتسريب عناصر نافعة من اليهود الصهاينة إلى فلسطين ، من كل البلاد التى تسيطر عليها القوات النازية العسكرية فى أثناء الحرب العالمية الثانية .

٣ ـ أن يتم تبادل منافع مالية، ومعدات زراعية ترسلها ألمانيا إلى فلسطين، على أن يساعد اليهود السلطات النازية على تسويق البضائع الألمانية فى الأسواق العالمية.

وهذا ما أفرزته اتفاقية: هعفراه = النقل = Transfer Treaty = Haavarah

وقد مثل الجانب النازى فيها : إيخمان ، ومثل الجانب الصهيونى = كاستنر .

ولقد عقدت هذه الاتفاقية فى سنة ١٩٣٣م وظلت سارية حتى سنة ١٩٤١م إذ بدأ نجم هتلر فى الأفول .

وكان أبرز اليهود الصهاينة الذين تعاونوا مع النازية والفاشية : فلاديمير جابوتنسكى ، وهو معلم مناحم بيجن وملهمه وأبوه الروحى ، وبن جوريون ، وبيجن ، وإسحاق شامير .

ولقد سعى هؤلاء القادة الصهاينة من خلال الفترة الفاشية / النازية تحت حكم هتلر وموسولينى سعيًا حثيثًا للتعاون معهما ، إذ إن هدفهم الأساس لم يكن إنقاذ اليهود من المذابح النازية ، بل كان إنشاء دولة يهودية بفلسطين العربية ، بانتقاء الفئات التى يتطلبها المشروع الصهيونى الاستيطانى ، من الأثرياء ، والشبان الفنيين الأكفاء القادرين على تعزيز قدرات الجيش الصهيونى بفلسطين ، وفى عبارة لابن جوريون تلخص هدف تعاون الصهيونية ـ مع النازية والفاشية يقول فيها : ليست مهمة الصهيونى إنقاذ بقية شعب إسرائيل الموجودين فى أوربا ، بل إنقاذ أرض إسرائيل من أجل الشعب اليهودى .

وبعد سقوط النازية فى سنة ١٩٤٥م عملت الصهيونية على إلصاق عمليات إبادة اليهود ، بالنازية ، وحاولت التنصل منها ، ثم أخذت تبالغ فى الأعداد الذين تمت إبادتهم ، ولكن الوثائق تكذبهم .

٥ ـ وكما كان للصهيونية علاقات وطيدة بالنازية ، كان لها علاقات ربما أقوى بالفاشية الإيطالية ، بل إن سلسلة مصاصى الدماء من يهود الكيان الصهيونى قد ربوا تربية فاشية ، وهذه السلسلة تنازليًا : موسولينى / فلاديمير جابوتنسكى / مناحم بيجن / إسحاق شامير / أرئيل شارون .

كان هناك تماثل بين موسولينى دوتش إيطاليا مؤسس الفاشية ، وهؤلاء القادة الصهاينة ، ذلك لأن الفاشية مجموعة أفكار قومية تقدس الدولة كهدف أسمى للمواطنين ، الذين يجب عليهم الالتزام بالطاعة للزعيم ، والانصياع لأوامره .

وهذا بالضبط ما يدين به حزب الليكود الصهيونى .

بدأ الاتصال بين المنظمة الصهيونية وموسولينى فى يناير سنة ١٩٢٣م وطلبت المنظمة الصهيونية من الدوتشى دعم الحركة الصهيونية ، وأبدى موسولينى نواياه الطيبة نحو ما أسماه « أهمية الاعتراف بدولة يهودية ، لها علم يهودى ، ولغة يهودية » .

ثم توثقت العرى بين الصهيونية والفاشية ، وكان أهم نتاجها قيام الصهيونى الفاشى فلاديمير جابوتنسكى ، بتأسيس فيلق صهيونى قتالى (الها جناه = جيش الدفاع) نواة الجيش الصهيونى فيما بعد ، كذلك سُمح لبعض الصهاينة أن يتدربوا فى الأكاديمية البحرية الإيطالية تحت إشراف إيطاليين ، وصار هؤلاء فيما بعد نواة القوات البحرية فى الكيان الصهيونى فى سنة ١٩٣٤م . كذلك ساعدت إيطاليا الصهاينة على إقامة أسطول تجارى فى سنة ١٩٣٤م ، فى مقابل أن يقدم الكيميائى اليهودى (حاييم وايزمان) مساعدات فى مجال الصناعات الكيمائية بصفة عامة ، وفى صناعة الدواء بصفة خاصة ، وتوفير المال الضرورى لإنعاش اقتصاد إيطاليا .

٦ ـ كانت القوة الأمريكية قد بدأت تظهر فى الأفق الدولى منذ بداية القرن العشرين ، ولأنها تملك الثروة والقوة والأعداد الكبيرة من البشر ، فقد كان العالم الغربى وفى مقدمته إنجلترا يفسح لها فى المجالات الدولية بقدر ما تستطيع من ملء الفراغ .

وكانت الولايات المتحدة ـ من جانبها قد رضيت عن تصريح بلفور بدون مواربة ، وساعدت بعده على إصدار صك الانتداب البريطانى على فلسطين ، وهى الأرض التى حرصت إنجلترا على أن تكون تحت سيطرتها بموجب اتفاقية سايكس ـ بيكو ، قبل التمهيد لتفريغها من أصحابها العرب ، لملئها بمادة يهودية بشرية تدين بالولاء ، والعمالة للعالم الاستعمارى الغربى .

كذلك وافقت الولايات المتحدة على الوثيقة التى أقرتها عصبة الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين ، وتهجير اليهود إليها بلا قيود .

فى هذا الوقت كانت البشارات ، قد بشرت بأن بلاد العرب تحتوى على أكبر خزانات النفط الخام فى العالم ، وبدأ أصحاب النفوذ فى البيت الأبيض ،

والكونجرس الأمريكى يخططون لجنى ثمار آبار النفط ، ولقد دفعهم ذلك إلى الاعتقاد بأهمية تقوية الكيان الصهيونى العميل الأكبر ، بشغل أهل المنطقة عن تحديث بلادهم ، بإحراز تقدم فى أى مجال من المجالات المادية والثقافية ، وتعجيزهم عن التحضر بصفة عامة ، بصنع القلاقل والأزمات ، ونشر الفتن بين العرب ، حتى لا يجتمعوا على رأى واحد ، أو هدف واحد .

ولهذا فإن حكومة الولايات المتحدة ـ منذ الحرب العالمية الثانية ـ سعت سعيًا حثيثًا ، لكى تعضد السياسة الصهيونية وأمانيها بدءًا من الاعتراف بها دولة قومية يهودية ـ ذات علم يهودى، وجيش يهودى، واقتصاد يهودى وصناعة يهودية إلخ. وانتهاء بضمان تفوقها فى القوة العسكرية والاقتصادية ، والعلمية على كل العرب. وسارت المساعدات الأمريكية لإسرائيل فى مسارين :

١ ـ مادى بحت لضمان تفوقها فى ميادين العلم والاقتصاد والقوة على الدول العربية مجتمعة .

٢ ـ مسار روحى بحت إذ إن المسيحيين الأمريكيين من البروتستانت الطهوريين يعتقدون بالنبوءات التوراتية ، كتبرير لدور إسرائيل البارز فى أرض فلسطين ، بل مبررًا لأهمية وجود الكيان الصهيونى بأرض فلسطين المقدسة .

وكثير من المسيحيين الأمريكيين يعتقدون فى بعث للمسيح لكى يُدخل اليهود فى المسيحية ليقودهم ضد قوى الشر ، ولا يقصدون بقوى الشر غير المسلمين ، ومن أجل ذلك تم تأسيس السفارة المسيحية الدولية فى القدس فى سنة ١٩٨٠م كدليل على الدعم المسيحى الدولى لنقل العاصمة الإسرائيلية من تل أبيب إلى القدس ، وتعمل هذه المنظمة على تغذية الدعم المادى والروحى للكيان الصهيونى من خلال مكاتب لها فى ٢٠ دولة ، ومن خلال نشاطها فى العالم .

٧ ـ إن الظاهرة الاستعمارية ، هى التى مكنت الصهيونية من الاستيطان بأرض فلسطين العربية ، والاعتراف بهم دولة ، وهى بذلك جعلت من اليهود مادة بشرية موظفة ، من أجل تعطيل التحديث الإسلامى العربى ، وتجميد تقدم المسلمين ، ولكن يجب أن يعلم أن الخطة الاستعمارية قد أحكم تنفيذها ، إلا أن أهم العوامل التى ساعدت على تنفيذها بهذا الشكل : ضعف المسلمين والعرب.

ومعنى ذلك أن القوة الأوربية التى أنقذت اليهود من الذوبان فى أوربا أو الفناء ـ يجب أن تماثلها قوة إسلامية / عربية لتحرير فلسطين الأرض التى باركها الله ـ وبارك ما حولها ، وإنقاذها من الصهيونية ، ومن النفوذ الغربى .

وأخيراً أحب أن أنبه إلى أن أصول هذا الكتاب كان بعض محاضرات ألقيت مختصرة على طلاب قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة ـ بكلية أصول الدين ـ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، عدت إليها وأضفت إليها بعض الإضافات لتظهر بهذه الصورة .

فإلى إخوانى من الأساتذة والطلاب بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية أبعث بتحية عطرة ، كعطر نسائم ربا نجد التى أتذكرها فى صباحى ومسائى ، وفى كل أوقاتى الطيبة الجميلة ، وبصفة خاصة إلى فضيلة الدكتور محمد بن عودة السعوى الذى كان وراء إلقاء هذه المحاضرات .

وإن أنس لا أنسى أن أوجه الشكر والتحية إلى زوجتى الفاضلة ، فقد تحمست لموضوع البحث ساعة أنبأتها بأنى سأعود إلى بعض أوراقى القديمة التى خططت فيها مختصر البحث ، كانت وقتها تتابع صور مذابح الفاشى / النازى مصاص الدماء شارون ، وأخبار أطفال الحجارة الذين يحصدهم مصاص الدماء ببنادق جنوده ـ فى التلفاز .

لقد كانت توفر لى الوقت ، وتدفعنى دفعًا إلى مواصلة الكتابة ، حتى أنجزته فى وقت قصير نسبيًا .

وأسأل الله تعالى ألا ينسى المسلمون والعرب أرض فلسطين المباركة ، فهى حبة القلب من أرض المسلمين ، وأن يسعوا لتحريرها .

ميت سويد فى يوم الخميس : **أ.د السيد أحمد فرج السويدى**

١٢ من جمادى الآخرة ١٤٢٥هـ أستاذ الدراسات الإسلامية المتفرغ

٢٩ من يوليـــــــو ٢٠٠٤م بكلية التربية ـ جامعة المنصورة